01-02-2021

ثورات بلا وعد ثوري

ثورات بلا وعد ثوري

موريس عايق

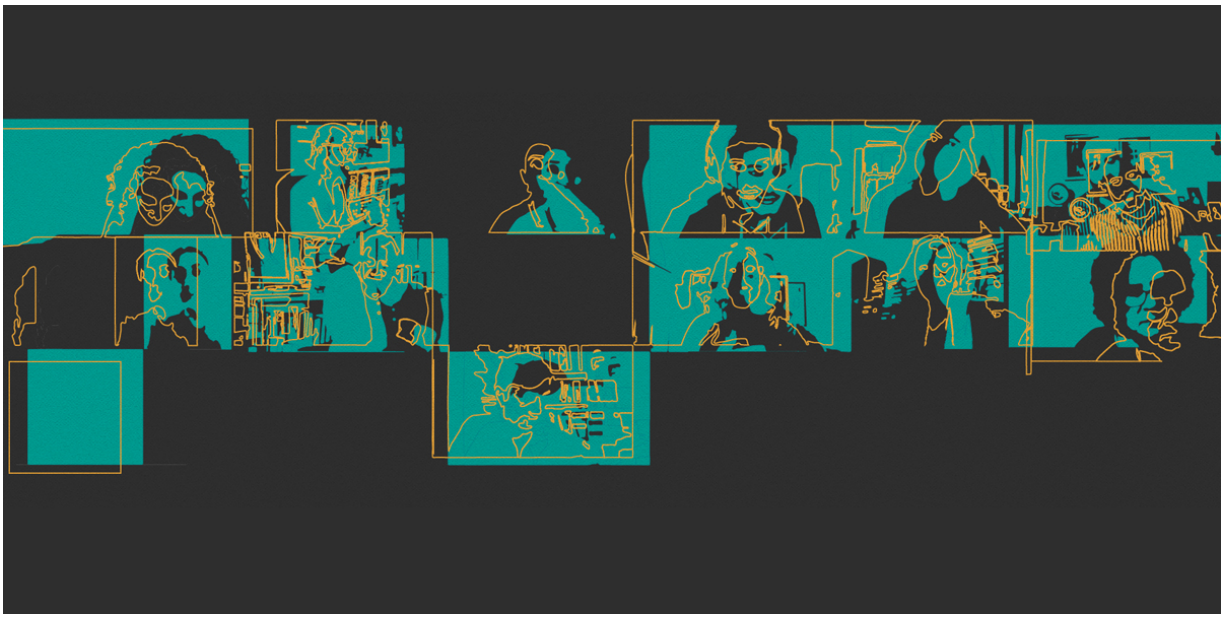

في الذكرى العاشرة لثورات 2011 العربية، لا نملك رفاهية تجاوز فعل التذكر. ولكن، بدلًا من إقامة نصب تذكارية توقعنا ضحية الحنين إلى الماضي أو الرغبة في رثائه، نختار أن نتذكر دلالة الحاضر والمستقبل. نطرح أسئلة عن تأثير مرور الزمن في تغيير فهمنا للحدث الثوري الماضي، وعما يقوله لنا هذا الحدث، وما راكمه من أفكار وممارسات، عن إمكانية تشكل تقليد ثوري عربي. ونسبر أيضًا مساحات جديدة للسياسة اليومية و«السياسة الصغرى» تثوّر فهمنا للسياسة وفحواها في عالم ما بعد 2011 العربي. في هذا الاستدعاء المزدوج للموتى كما للأحياء، نهدف إلى مواجهة أسئلة سياسية قديمة وأخرى جديدة حول التاريخ والتعامل مع الماضي، وحول الأيديولوجيا والتنظيم والهوية الوطنية، وحول مواقع الممارسة السياسية التي تشكل واقعنا المُعاش الآن، وقد تلهمنا لإعادة تخيل المستقبل.

لقد كان الزمن الثوري العربي أجمل الأزمان وأقساها: شكّلنا كذوات سياسية بما حمله من شجاعة وأمل وفعل مولد، وعاد وحطمّنا بما رافقه وتلاه من وحشية لا حدود لها، وأدخلنا في خضم كل هذا في لولبة خطابية لا تنتهي عن النجاح في مقابل الفشل.

في هذه السلسلة من النصوص القصيرة التي أعدها موقعا «الجمهورية» و«مدى مصر»، والتي تلت نقاشات بين كتّابهما، محاولة أولى لكسر هذه اللولبة. هي دعوة لتأمل العقد الماضي بوصفه تاريخ، بعيدًا عن السرديات الخشبية الجاهزة، ثورية كانت أم ما بعد ثورية، وعن غرف الصدى الفئوية أو الوطنية الضيقة، بما قد يكشف عن ديناميكيات وموضوعات وأصوات لم تحظ بالاهتمام من قبل. كمنصتين صحفيتين أسهمت لحظة 2011 في إنتاجهما، ندرك بشكل خاص كم الإنهاك والتكرار الذي تثيره النقاشات عن الربيع العربي لدى كُتابنا وقرائنا على حد سواء. وبالنسبة لنا، هذا أيضًا جزء من واقعنا المعاش وقسوته التي نختبرها في لحظات التأمل مع «ملاك التاريخ».

*****

بين الأطروحات الثلاث التي ناقشها المؤرخ الفرنسي، فرانسوا فوريه، لتفسير الثورة الفرنسية كلحظة تأسيسية للتقليد الثوري، تحظى أطروحة أوغست كوشان، المُنظِّر الكاثوليكي المحافظ والمعادي للثورة، بأهمية خاصة. فهو يعتبر أن ما يميز الثورة الفرنسية أنها لحظة قطيعة مع اللغة والمخيلة التي يُنظَر من خلالها إلى العالم. قامت الثورة الفرنسية على مخيلة سياسية مختلفة بشكل جذري عما سبق؛ رؤية يعقوبية للعالم مستمدة من فلسفة التنوير، انتشرت بفضل جمعيات تبنّتها وعملت على تعميمها ونشْرها في المجتمع. تُحيل هذه الرؤية إلى التساوي التام بين الأفراد، الأحرار من التقاليد والمرتبة الاجتماعية، والذين يتولون إدارة شؤونهم بأنفسهم. هنا نجد التصورات السياسية الحديثة جميعها: المساواة والسيادة الشعبية والديمقراطية والحرية والجمهورية، جميعها قائمة على تخيُّل جديد وجذري للعالم.

ما يجعل التمرد أو الانتفاضة ثورة هو هذه المخيلة الجذرية الجديدة.

كذلك تعرّف حنه آرنت الثورة بوصفها بداية جديدة وتأسيساً جديداً يُحيل إلى الحرية، وهذه مقولة تجريدية تُحيل إلى المفهوم التجريدي نفسه وهو الفرد. تتعين الحرية هنا بالإحالة إلى المشاركة في الحياة السياسية، فالفرد مواطن، والمشاركة تُحيل إلى «المجال العام» كظاهرة حديثة ومكان لمناقشة الأمور السياسية والاجتماعية والتداول بصددها. التاريخ مليء بالتمردات والعصيانات، لكن الثورة ظاهرة حديثة، تعود إلى الثورة الفرنسية أو الأمريكية أو ربما الهولندية بوصفها بداية التقليد الثوري. ما يجمع هذه الثورات الأولى على تباينها أنها أسست لبداية جديدة انطلاقاً من هذا التصور التأسيسي لأفراد متساوين وأحرار يحوزون السيادة فيما يتعلق بإدارة حياتهم.

يمكن تعريف التقليد الثوري أنه يقوم على هذا التصور الذي تأسَّس مع الثورات، والذي حرص الثوريون دوماً على الإحالة إليه وتقديم معنى لأفعالهم بواسطته. إنه

تقليد من القيم والمعاني والرموز التي فكر الثوريون من خلالها وفهموا ما يقومون به بالإحالة إليها. إحالات البلاشفة إلى الثورة الفرنسية لا تنتهي، وقد سبقهم ماركس وإنجلز وثوار 1848.

هل يمكننا الحديث عن تقليد ثوري عربي بعد مُضيّ عقد على الانتفاضات العربية؟ يمكن تفكيك هذا التساؤل إلى سؤالين: الأول هو، هل تندرج الانتفاضات العربية في هذا التقليد الثوري الكوني؟ والثاني، هل أسست الانتفاضات العربية لتقليد ثوري خاص بها؟ لعل عشر سنوات ليست فترة كافية للإجابة، لكن يمكننا تقديم ملاحظات أولية.

بالطبع، كانت هناك إحالات دائمة ومستمرة إلى التقليد الثوري، كالحرية و«الشعب يريد إسقاط النظام» وتأكيد الشرعية الشعبية والمواطنة وغيرها، وجميعها تنتظم في لغة هذا التقليد. لكن هذه اللحظات بقيت محدودة في مسيرة الانتفاضات العربية، واقتصرت على البدايات (ميدان التحرير والتجمهرات الأولى)، قبل أن تتضاءل هذه اللحظات وتضمحل. الجمهور العريض الذي دخل إلى الساحة العامة، التي فُتحت عنوة وبأثر الانتفاضة، كان ذا مزاج محافِظ ورجعي بشكل كبير، ودور الإسلاميين في الانتفاضات ونجاحاتها واستمرارها، كما في هزائمها اللاحقة، كان حاسماً، ولا يمكن التقليل منه. المزاج العام للمنتفِضين ولو عمّمنا قليلاً كان يعادي فكرة الحرية، التأسيسية للمجال العام نفسه، بل وكان أكثر تشدداً في التأكيد على المكانة والانتماءات والتراتبيات بشتى أنواعها، والانغراس في التقاليد والعادات. لقد فتحت الانتفاضات العربية مجالاً عاماً بالقوة، ليدخله جمهور يُحيل إلى مخيلة سياسية معادية أو لنقل متوجسة من المجال العام نفسه؛ من الحرية التي يشترطها المجال العام.

هذا هو لب مفارقة الانتفاضات العربية، فقد انتفض المقهورون، لكن دون وعد بالحرية يلازم انتفاضتهم. لماذا؟ هنا أيضاً يمكننا تقديم تفسيرات أولية.

أولاً أن التنوير والتحديث والتقدم قيم التقليد الثوري كانت في السياق العربي أيديولوجيا الأنظمة المستبدة، والتي استخدمتها لتبرير سيطرتها وسطوتها؛ أيديولوجيا الدولة في مواجهة مجتمعاتها وشعوبها. فالدولة العربية قدمت نفسها كرافعة للتحديث والتقدم في فترة السلطويات الشعبوية، وصارت اليوم كما في مصر هي الناطق باسم الإصلاح الديني.

ثانياً أن الثورات الأوربية أتت بعد حقبة من تراكم الإنتاج والمعرفة، فيما أتت الانتفاضات العربية تتويجاً لمسيرة نكوص وانحدار في المجالات كافة، وهنا يمكن النظر

إلى مؤسسات مثل التعليم، أو حتى بيروقراطية الدولة نفسها، ومقارنة أدائها بما كان عليه قبل عقود.

ربما علينا أيضاً التوقف عند ثنائية الريف والمدينة. يمكن التفكير فيما إذا كانت هناك حقاً مدينة عربية (بما يحمله مفهوم «المدينة» من معيارية، مع تذكر أن كلمة «السياسة» في اللغات الأوروبية مشتقة من المدينة).

أخيراً، لدينا الانقسامات الطائفية والإثنية في المشرق من جهة، ومسألة إسلامية-سنّيّة حادة منذ القرن التاسع عشر، وزوال العالم الذي كان يعطي معنى للّغة الدينية والشريعة. فالعالم الذي قدم المحتوى الخاص بالشريعة وتصوراتها (بما فيها مسائل السياسة الشرعية) زال من الوجود، فيما انغرست لغته في تصور قائم على التقاليد والتراتبية الصلبة بين أفراد مقيدين في حدود جماعاتهم الدينية.

المفارقة التي طرحتها الثورات العربية هي أنها، ورغم كونها تمرد مقهورين ضد دول مستبدة ومتوحشة، لم تظهر بمثابة بداية تقليد ثوري مؤسَّس على الحرية يُمكِّنه من تأسيس أو توسيع المجال العام. على العكس، استعانت الانتفاضات بمنظومة مختلفة من القيم والمعاني المتوجّسة من الحرية في أفضل الأحوال، ما يجعلها أقرب إلى التمردات الساخطة منها إلى الانضواء تحت تقليد ثوري.

تم تنظيم نقاشات عشرية الثورة بدعم من موقع **أوريان *21***